التهامي الوزاني

مدرسة لوقش

تقديم

د. نادية الرزيني



التهامي الوزاني

مدرسة لوقش

تقديم:

د. نادية الرزيني

جامعة "دار هام" بإنجلترا

نشر

جمعية تطاون - أسمير

الكتاب: **مدرسة لوقش**

نشر جمعية تطاون - أسمير

الطبعة الأولى: 2002

الإيداع القانوني:2001/1736

تصفيف وإخراج:



توطئة

يضم هذا الكتاب نص دراسة مونوغرافية عن «مدرسة لوقش» كان التهامي الوزاني (1903-1972) قد وضعها بمناسبة مرور قرنين على بناء تلك المؤسسة العلمية بتطوان في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي. ويبدو أن الكاتب ألقى النص على شكل محاضرة، قبل أن يعمد إلى نشره على صفحات مجلة «الأنيس» الشهرية ضمن أعدادها الأربعة (80-81-82-83) الصادرة فيما بين شتنبر ودجنبر من سنة 1953.

يتعلق الأمر ببحث غير مسبوق يتناول جانبين: الجانب التاريخي الذي يشكل السياق العام، والسياسي بصفة خاصة، لتبلور إنشاء مدرسة لوقش، ثم الجانب المؤسساتي الذي يبحث في ملكية المدرسة، ووضعيتها، وحبوسها، وعلاقتها بالمسجد، وبالمجال الاجتماعي والروحي لمدينة تطوان. والملاحظ أن الكاتب عالج هذين الجانبين على نحو متتابع ومتداخل في آن،

وحرص، كعادته، على إثرائهما باستطرادات وروايات شفوية وأساطير ومسموعات أضفت طابعاً مشوقاً على الدراسة في مجملها.

لقد اقتضت إعادة نشر هذه المونوغرافية المحافظة على نصها كما هو. لكننا عمدنا مع ذلك إلى إدخال تعديلات طفيفة تمس الشكل لا الجوهر: هكذا غيرنا عنوان الدراسة فأصبح «مدرسة لوقش» بدلاً من «مدرسة لوقش كفكرة»، وضبطنا تنقيط النص من حيث تحديد مواقع الفواصل والنقط، كما قمنا بتقسيمه إلى قسمين كبيرين مدرجين عناوين فرعية، هنا وهناك، تيسيراً لقراءته.

إن إعادة نشر هذا النص التاريخي والتربوي والعلمي يندرج في إطار عمل تدريجي صبور تحرص «مؤسسة التهامي الوزاني للثقافة والتراث»، منذ بضع سنين، على إنجازه وهو وضع مؤلفات التهامي الوزاني، المنشورة والمخطوطة والقابعة في بطون الصحف، بين يدي القراء اعترافاً بدوره المركزي في بلورة ثقافتنا الوطنية الحديثة.

لقد سبق للمؤسسة المذكورة أن أعادت إصدار كتابين له يعكسان مساهمته الرائدة في مجال تأسيس السرد المعاصر بالمغرب هما «الزاوية» (1999) و«سليل الثقلين» (2000). ويسرها أن تضع بين يدي القارئ اليوم كتاباً يعكس طبيعة عمله كمؤرخ حريص على البحث والتمحيص والاستنتاج، منفتح، في نفس الوقت، على ما يعج به المجتمع من أصوات.

على أن صدور هذا الكتاب في أفق الاحتفاء بذكرى مرور

250 عاماً على أحداث مدرسة لوقش (وهو ما يصادف، على وجه التقريب، سنة 2003) ليعتبر، في حد ذاته، تنويهاً بتاريخها التربوي الحافل، وتنبيهاً لما يتهدد مصيرها، كمعْلمة معمارية، من دمار وشيك.

إبراهيم الخطيب

مقدمة

من الفضائح الكبرى التي عرفتها تطوان أن مدرسة لوقش لا تزال تعاني إهمالا كاملا رغم العرض السخي الذي قدمته الحكومة الأندلسية (Junta de Andalucia) لترميم هذه المعلمة في بداية التسعينيات. وقد مر عقد من الزمن منذ انفجار الخلاف بين بلدية تطوان ووزارة الأوقاف بشأن ملكية هذه المعلمة، ويشاع مؤخرا في تطوان أن هذه الوزارة تنوي إعادة إحياء مشروع تحويل المدرسة إلى قيسارية.

ما الفائدة من ترميم مدرسة لوقش والحفاظ عليها؟ لقد اعترفت منظمة اليونسكو بمدينة تطوان العتيقة تراثا عالميا يحتاج الى الدراسة والمحافظة، وتتميز تطوان عن غيرها من المدن المغربية والتاريخية بإرثها المتأثر بالثقافة الأندلسية والأعجمية والموريسكية والعثمانية.

ومع كل هذا فإن السائح الأجنبي لا يستطيع أن يزور هذه المآثر الرائعة، فدخوله الى المساجد التاريخية ممنوع، والمعالم

التاريخية القديمة متروكة للإهمال والتداعي، وكل ما يمكن أن يشاهده هذا السائح بعض المنازل الخاصة من الخارج والتي اكتست مظهرا شائهاً عندما تحولت الى بازارات. إن متاحف المدينة، كالمتحف الأثري والمتحف الإثنوغرافي بباب العقلة ودار الصنائع، توجد في بنايات يعود تاريخ بنائها الى القرن العشرين فقط. لذلك لا توجد بنايات تاريخية بتطوان يمكن للسائح الأجنبي أن يزورها ليستمتع بمدينة مصنفة ضمن التراث العالمي. ومن ثمة يغادرها بانطباع سلبي.

وتختلف الوضعية في بعض المدن العتيقة المغربية الأخرى كفاس ومكناس ومراكش، حيث يمكن للزائر أن يستمتع بمشاهدة المدارس المرينية والسعدية والعلوية في أوج تطورها المعماري والفني علما أنها عرفت إهمالا كبيرا في بداية القرن العشرين، مع أن بعضها كان يوظف للتدريس. وربما لهذه الأوضاع المحزنة التي آلت إليها بعد الاستقلال، وجب علينا أن نشكر المارشال ليوطي والإدارة الثقافية في عهد الحماية الفرنسية على الاجراءات التي قامت بها من أجل المدارس التاريخية في العشرينيات، فقد نزعت المسؤولية من وزارة الأوقاف في مستهل الحماية الفرنسية ثم أعلنتها مآثر تاريخية بالرغم من كونها بنايات دينية تضم مساجد في غالب الحالات. ولم تعرف مدرسة لوقش نفس الحظ في ظل الحماية الإسبانية، إذ أنها ظلت تحت مسؤولية إدارة وزارة الأوقاف، كما تم الحفاظ على دورها بصفتها مدرسة.

وتعتبر مدرسة لوقش معلمة تاريخية فريدة لعدة أسباب نذكر منها ما يلي:

1- إنها المدرسة التقليدية الوحيدة التي لم يتم تدميرها في شمال المغرب.

2- خلافا للمدارس التاريخية المشهورة بفاس ومكناس وسلا ومراكش، فإن مدرسة لوقش بنيت وسيرت بأموال الأوقاف الخاصة، ولم يمولها السلاطين. لقد بناها عامل تطوان محمد بن عمر لوقش خلال القرن الثامن عشر بجانب مسجد يحمل نفس الإسم وهو جامع لوقش. تم ذلك خلال فترة تاريخية مضطربة من تاريخ المغرب، إثر وفاة السلطان مولاي إسماعيل الذي حكم المغرب من 1757 إلى 1790 وفرار محمد لوقش إلى ضريح المولى عبد السلام بن المشيش بعد أن تم اعتقاله. إلا أن عائلة لوقش ما زالت إلى يومنا هذا معدودة ضمن أعيان المدينة.

3- إن مدرسة لوقش تعكس تاريخ تطوان خلال هذه الحقبة التاريخية، وقد حكمت تطوان بعض العائلات الأندلسية مثل عائلة لوقش المهاجرة ضمن آلاف الموريسكيين في السنوات الأولى من القرن السابع عشر من الأندلس إلى المغرب حيث استقر عدد منهم بتطوان، مما أدى إلى نمو المدينة. ويعد موقع مدرسة لوقش "بالغرسة الكبيرة" جزءا من هذا النمو الذي عاشته الأحياء الموريسكية بتطوان.

4- تعتبر الهندسة المعمارية لمدرسة لوقش متفردة، فهي تعكس تأثير هندسة القصور المعمارية خلال عصر النهضة

وتتميز ببساطة هندستها المعمارية وبغياب الزخرفة فيها. تختلف في ذلك عن المدارس التاريخية التي توجد في المغرب والتي تتميز بالزخرفة على الخشب والجبص والزليج على غرار الهندسة المعمارية المرينية بفاس. وتعتبر مدرسة لوقش نموذجا للهندسة المعمارية التطوانية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

5- حافظت مدرسة لوقش على دورها في مجال التعليم خلال عهد الحماية الإسبانية، كما لعبت دوراً هاما في الكفاح الوطني بشمال المغرب، وذلك ما دفع سيدي التهامي الوزاني إلى وضع دراسة حول مدرسة لوقش نعيد تقديمها إلى القراء في شكل كتاب.

هناك أسئلة عديدة بدون جواب يطرحها التفكير الملح في تحويل المدرسة الى قيسارية: فمن سيستفيد من مداخيل بيع أو كراء حوانيت هذه القيسارية، وبما أن وزارة الأوقاف ليست مرغمة على التصريح بميزانيتها فلن نعرف قط هل ستستثمر هذه الأموال في تطوان وبأية طريقة؟ ألا يجب على وزارة الأوقاف أن تحترم وتحافظ على المآثر التاريخية التي جعلت من مدننا الإسلامية مراكز غنية للتعليم والثقافة؟ هل يحق للمسؤولين الإداريين بوزارة الأوقاف أن يفرضوا هذه المشاريع غير الوطنية على سكان المدن الإسلامية؟ من يملك مدرسة لوقش في الحقيقة؟ أليست هذه المدرسة في ملكية سكان مدينة تطوان وسكان العالم باعتبار أن تطوان أصبحت مصنفة ضمن التراث العالمي؟ ألم يحن الوقت بعد للاعتزاز بماضينا لمجابهة الإفلاس الروحي والأدبي؟

د. نادية الرزيني

مدرسة لوقش

القسم الأول

من طبيعة شمال المغرب تمسكها بشخصيتها، ولها ضمن وحدة التراب المغربي طابع يطبعها، فيجعل لها شبه استقلال داخلي. فسبتة يليان الغماري لا تختلف كثيرا عن سبتة بني العزفي، فلقد كان لها في كل ذلك نوع من التصرف في شئونها. ولما أخذ العالم الإسلامي في الجزر بعد المد تقهقر العرب من الأندلس، ووصل الايبيريون الى سبتة وطنجة وسواحل المغرب، في حين كان المسلمون الاعاجم يتقدمون في الشرق، وعوض التاريخ غرناطة بالقسطنطنية. ووقف الامتداد الغربي في المدن الساحلية دون أن يمتد إلى ما وراءها. على أن البرتغال أعدوا خيولهم في مغامرات إلى أن وقفوا على انقاض تطاون الخربة، لكنها غارات ارتياد لا حملات فتوح. وكان الفتح في تلك العهود قاسيا مريعا، لأن القوانين الدولية في التوسع والرأفة بالإنسانية لم تكن إذ ذاك شيئا مذكورا، ولو أننا تقهقرنا الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر من الميلاد، لتبدل نظرنا عما هو عليه اليوم، فإن الملوك كانوا إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. لا فرق في ذلك بين عرب وعجم، ولا حروب داخلية أو مع الأجانب، فقد كان التطرف في الانتقام أمرا

يفتخر به بين الفرسان والأبطال. واضطر السبتيون والطنجيون الى الانسحاب عن مساكنهم بعد أن عجزوا عن الدفاع عنها. ومن أراد أن يعرف مآل أغلبية السبتيين والطنجيين وأهل قصر المجاز فعليه أن ينظر الحروب العصرية، فإن الساكنين بمدينة مهددة بالفتح المعاكس يذهبون إلى خارجها معتصمين بالمعاقل الخلفية. وكذلك كان الشأن في سبتة، فإنها كانت عاصمة لقبائل غمارة وما نطلق عليه اليوم اسم الناحية الجبلية، وكانت تمدهم بالعلم والسياسة وتربط وحدتهم، فخرجوا منها الى ما جاورها، ولم يبعد إلا الأقوياء أصحاب الثراء. وبقيت العمالة جسدا بدون رأس: وجاء الغرناطيون ومن معهم من الأندلسيين فأدركوا حقيقة الموقف، وعلموا أن هذه العمالة في حاجة إلى مركز يربط بين اجزائها، وسواء قصدوا أم لم يقصدوا فإن تأسيسهم لقصبة تطاون كان خطة موفقة، فقد أخذت تتسع وتكبر لتخلف سبتة وطنجة، وتتولى رئاسة هذه العمالة التي كانت ذات شأن في التاريخ. وكانت سبتة تقدمت خطوات فاستقرت بمجثم جديد يدعى تطاون، وهرع السبتيون والطنجيون إليها، دون أن يحتاج التاريخ الى ذكر ورودهم، فإنهم مغاربة انتقلوا من جهة الى أخرى، كالفاسي ينتقل إلى مراكش، وأبناء العزفي تحولوا في تطاون الى عزيفي، وقريتهم الأصلية مدشر عزفة القريب من المعسكر العام للفيف المتطوع القريب من سبتة. والسبتيون أكثر انسجاما مع الأندلسيين منهم مع المغاربة لأن تأثرهم بالأندلس كان أقوى من ثأثرهم بالمغرب، وانضووا بسهولة تحت لواء القائد

علي المنظري، وأصبحوا أندلسيين لحما ودماً، وكانت قلوبهم أكثر اطمئنانا لأنهم لم يفصلهم بحر عن ديارهم. ولا يزالون يطمعون في العودة الى مساكنهم التي يرونها بأعينهم.

رجل متسم بالصلاح

ولعل السامع والقارئ يلتمسان وجه ارتباط موضوع مدرسة لوقش بالحديث المقتضب عن سبتة ومهاجريها، ولعلهما يهتديان الى أن باني هذه المدرسة، عندما بنى مسجدها وشرع في بنائها، اختار رجلا من أهل الدين والصلاح ليكون أماما بالمسجد الجديد، فامتنع الإمام الصالح من أن يصلي في مسجد بناه حاكم مطلق التصرف، لا يبالي من أين جمع المال. وبلغ الحاج محمد بن عمر لوقش تأفف الرجل من الإمامة بمسجده، فأحضر عدلين وأقسم أمامهما بالله العظيم على أنه لم يدخل في بناء المسجد والمدرسة إلا ما أفاء الله به عليه من غنائم سبتة، وهي من أحلّ الحلال. فاطمأن خاطر الإمام ولازم هذا المسجد الجديد.

وعلينا أن نستشير التاريخ في شأن غنائم سبتة، وإذ ذاك نجد أن سلاطين المغرب أصبح من واجباتهم الأولية الدفاع عن التراب المغربي والسعي في استرجاع ما ضاع عليه. وكان رباط سبتة أهم رباط ومدته أطول مدة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المواصلات البحرية كانت فوضى في فوضى، فلا قوانين ولا حدود، ولعل مَثَلَ «زَرْبَكْ البْحَرْ» ضُرِب في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ففيهما وفي القرن الذي يليهما كانت القرصنة

البحرية بدعا من العمل، ونوعا من الكسب يلتجئ إليه الأقوياء المغامرون. وعلى البحريات أن تحمي نفسها بنفسها، وعلى الأساطيل التجارية أن تجند جنودا مزودة بالمدافع والأدوات الحربية. وكان للبحرية التركية شأن وأي شأن، حتى أصبحت أقوى بحرية في البحر الأبيض المتوسط، حتى كانت معركة "ليپنطو فخف الأمر يسيرا. وكان المغامرون لا يقيمون وزنا للأمواج والأرواح، وأصبح البحر متجرا تُقْتَنَى منه الأموال سهلة الى أقصى الحدود أو صعبة الى أقصى الحدود، فمن تغلب بقوته أخذ المركب مغنَما، والمسافرين عبيدا، وعلى من غلب عليه أن يخضع لنفس هذا المصير. وكانت القرصنة منسجمة مع ما كان معروفا بين الفرسان الأوربيين من تحاكمهم الى المبارزة ومن قتل صاحبه فإن دمه هدر عملا بهذا العرف القاسي.

وكان للمغرب حظ من غنائم البحر أو التلصص فيه، وكثيرا ما جر ذلك المصاعب والمتاعب للمغرب الى حد أن مولاي سليمان رحمه الله لم ير من مخلص إلا أن يحرق القطع المغربية، فإن وجودها يزيد المغرب تعبا على تعبه. ولقد كان مولاي اسماعيل العلوي رضي الله عنه ملكا شديد البأس، حذرا شديد الحذر، شديد الحزم، حتى بلغ من حزمه أن الرجل لا يبيت بقرية الا وصل خبره الى مولاي اسماعيل في أقصر مدة حتى ولو كان ذلك بضفاف نهر النيجر وأسوار تنبكتو، أو كان بأقصى بلاد الريف. وكان ولاته يشعرون بأن قبضة من حديد تلتف حول أعناقهم، وأي خاطر يخطر في بالهم فضلا عن الهمهمة، فضلا عن الفعل،

فإن ذلك يوجب، بصفة آلية، ان تضغط القبضة على الرقبة فلا تتحول عنها الا وهي جثة هامدة. فإرادة مولاي اسماعيل تطبق كما يجب وبكل دقة سواء في البر أو في البحر في حين أن أبناءه الذين جاءوا من بعده ما كانوا يجرأون أن يتسموا بأمير المؤمنين. ويكتفي الواحد منهم بأنه ابن أمير المؤمنين. وفي أيام هؤلاء الغلمة عمد كل مفسد فبنى له سفينة ليصطاد بها السفن، كما يبني الحوات قاربه لصيد الأسماك. كانوا يظفرون في بعض الأحيان ويظفر بهم الأوربيون حينا. ولم تفرق أوربا بين القراصين، وإنما تقسمها الى قرصنة البربرية، وقرصنة الأتراك. على أن عمل القراصين المغاربة كان محدودا جدا، فإنه لا يكاد يتجاوز بضعة أميال من الشاطئ، فكان أشبه بحراسة الشواطئ منه بقراصين عتيدة. وقد تمكن مولاي إسماعيل رحمه الله من أسر خمسة وعشرين ألفا من الأوروبيين. وتؤكد رسائل الرهبان أنه كان في أسره هذا العدد كما كان في سجونه من المغاربة مثل هذا العدد. يعمل كل من الأسرى المسيحيين والمساجين المغاربة في بناءاته العظيمة، ومن هلك من العاملين دفن في تلك البناءات، في أراضيها وأسوارها.

عمر لوقش

وكان لمولاي اسماعيل حروب في طنجة وأصيلا والعرائش ومليلية وسبتة والجديدة، ولعل أسراه هؤلاء من هذه الحروب. وكانت علائقه رغم ذلك مع الدول الأوربية حسنة، وكان مستقلا

بالنظر في شؤون البحر، وكان يعتمد على رجال نابهين من بينهم الفقيه عمر لوقش. وكان هذا الرجل من عائلة لوقش الأندلسية وهي تربط نسبها ببني أمية الذين كانوا خلفاء بالمشرق والأندلس. وهذه الأسرة من المهاجرين الأولين، وليست من المطرودين الموريسك، فإن الأندلسيين بالمغرب ينقسمون الى ثلاثة أقسام: قسم منهم رحل الى المغرب من قديم قبل حصار غرناطة، وعندما كانت رقعة اسبانيا المسلمة رحبة الأرجاء، فكانوا يردون خوفا من سلاطين الأندلس، ومن هؤلاء الواردون على فاس فارين من الحكم الأموي. وكثيرا ما كان الأندلسيون يفدون على المغرب مؤدبين وموظفين، كما كان المغاربة يرحلون الى الأندلس، ولم تنقطع هذه العلاقات في يوم من أيام اسبانيا المسلمة. وكانوا يتواردون جماعة وفرادى يعملون في الدواوين وفي صفوف الجند، فمنها هذه الطبقة الأولى من أندلسيي المغرب. ثم لما أصبحت إسبانيا المسلمة مثل أفحوص القطاة، تؤدي إليها طريق كطريق النمل، حسب تعبير مؤرخي تلك العصور، هاجر جمهور من الأندلسيين، وكان معظمهم هذه المرة من الأستقراطيين والبرجوازيين، وقلما كان بينهم أصحاب الطبقات الوضيعة. وكان هؤلاء خيرة الأندلسيين سابقيهم ولاحقيهم، وأغلب أندلسيي تطوان، ومنهم آل لوقش، ينتمون الى هذه الطبقة. ثم وردت طوائف من الغوغاء والعامة وهم المطرودون الذين وردوا على الشمال الإفريقي جهالا فقراء. وتمثل الأندلسيون الأقدمون في مدينة فاس، والمهاجرون ذوو الحضارة والأخلاق في تطوان

والرباط، والمطرودون في تونس وبعض اندلسيي سلا. وفرضت الطبقة الارستقراطية والبرجوازية وجودها، وسماها المغاربة بالمتحضرة. ومثلت الإسلام في الأندلس أجمل تمثيل، واستطاعت بسمو أخلاقها وحسن تربيتها، وبما لها من الكفاءة أن تستر عورات غوغاء الأندلسيين الذين لم يكونوا في استقامتهم مثل المهاجرين المتحضرين. وأكبر من ذلك أنهم انضموا للجندية البرية والبحرية، فكانت مواقفهم في الجهاد برا وبحرا تغطي ما كان يصدر عن بعضهم من الهنات.

في خدمة البلاط

وكان ملوك المغرب يجدون في متحضرة الأندلس خير مساعد لهم على تدبير شئون المملكة. وكان مولاي اسماعيل، رضي الله عنه، لا يسمع بذي كفاءة بمملكته إلا كان منه على أحد أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يخدم الدولة في غير تردد ولا مواربة، وإما أن يقتل وينكل به. وكان الفقيه عمر لوقش ممن اختارهم مولاي اسماعيل لخدمة بلاطه، وطالت خدمته له حتى أيقن منه الإخلاص، وعرف أنه قد أنهك قواه في خدمة الدولة، فكافأه على حسن خدمته، وقلده عمالة تطاون بلده وبلد المهاجرين الأندلسيين. لكن تطاون ثغر الإسلام، وباب المملكة وموطن المناورات ومجابذة الحبل، ولوقش رجل مدني لا يطمئن مولاي اسماعيل الى غنائه في الحرب والمرابطة. على ان الفقيه عمر لوقش، رحمه الله، لازم مولاي اسماعيل، ومن لازم مولاي

اسماعيل كان عسكريا بطبعه أم لم يكن كذلك فإنه لا بد أن يتطبع على الصراع والقوة. ودلت الأيام على أن لوقش كان لا يزال في قوة من بدنه، وحدة من عقله، وقدرة على النضال، وذلك حينما وقف في وجه القائد أحمد بن عبد الله الحمامي التمسماني.

كان الأمر في المنطقة الشمالية من المغرب يتطلب حزما ويقظة، فإن قضاياها جد معقدة، وإنها منذ عهد الأدارسة تقضي جل عمرها في شبه استقلال داخلي. وعندما احتل الإيبريون المدن الساحلية بالمغرب أصبح العبء كله محمولا على كاهل هذه المنطقة وأهم معارك المغرب مع أوربا معركة وادي المخازن، وقد وقعت بمنطقة الشمال، وكان الشيخ العياشي والمقدم الخضر غيلان والمقدمون أبناء النقسيس يقومون بالنضال في الشمال. فلهذا ادرك مولاي اسماعيل أن أهل الشمال هم الذين يجب أن يدربوا على الصراع ليكونوا جيشا دائما: فاعتمد أهل الريف، وقلدهم زعامة المنطقة، وتركهم يفهمون أنها بلدهم، وأنهم أولى الناس بها وبالدفاع عنها، واطمأن أهل الريف الى أنهم أصبحوا أظافر وأنياب الدولة فأخلصوا لها. ويمكن أن يتهم القائد أحمد الريفي بأنه طالب ملك، ولكنه لا يتهم أبدا بأنه خائن للدولة. فإن كرامته قامت على أساس وقوفه في وجه الفاتحين لمدن المغرب الساحلية.

وعلى كل حال، فإن مولاي اسماعيل رأى ان القائد أحمد أولى بأن يتولى عمالة تطاون، فولاه عليها وولى الفقيه عمر

أمانتها، فأصبح القائد أحمد عاملا، وأصبح الفقيه عمر لوقش أمينا ومستشارا. ومن عرف خطة مولاي اسماعيل، أدرك بسهولة أن لوقش كان العين الباصرة والأذن السامعة الوفية، يبلغ مولي اسماعيل كل شيء يجري لا في تطاون وحدها، بل في عمالة الريفي بأسرها: ولقد كان القائد أحمد ذكيا صبورا، عارفا بشئون العالم، مطلعا على النهضة في أوربا، يحسن اللغة الاسبانية، ويتصل مع الأجانب في حذر وحزم. وكان عمر لوقش عالما أكثر منه، يجيد قراءة اللغة الإسبانية، ويطالع الصحف والكتب المكتوبة بها، إلى ذكاء خارق للعادة، ومعرفة بالفنون الجميلة. وكان لوقش متصلا بالأجانب، أو أباح له سلطانه مولاي إسماعيل أن يتصل بهم ليكون للقائد أحمد بمنزلة وازع الضمير، فإذا هم بفعل أو قول تذكر أن الأمين من ورائه. وكان لوقش ليس أمينا على المال فقط، بل أمينا على سلامة المنطقة أيضا، وكان يتاجر مع الأوربيين وبالأخص مع الانجليز، وهم لم يكونوا يوثرون عليه أحدا بتطاون. فبيته منزلهم، وهو الذي يقضي شؤونهم، وهم الذين عرفوا أنه هو الرجل الوحيد بتطاون الذي كان إذ ذاك يتخذ في مسكنه اثاثا أوربيا، وهم الذين سجلوا أنه كان يعرف اللغة الاسبانية الى حد أنه كان يدرس بها كتب العلم، فكان له إلمام بكثير من العلوم العصرية.

صراع بين رجلين

وكان مولاي إسماعيل، بين القائد أحمد الحمامي والأمين

الفقيه عمر لوقش، قد قبض على زمام المنطقة الشمالية باليدين، وتبصر فيها بالعينين. وأثرى لوقش ثروة لم تكن لأحد من التطاونيين. ولا بد أنه كان قريناً عنيدا للقائد أحمد، فتربت الأحقاد بينهما من لدن هذه الحقبة التي اشتركا فيها في الاستبداد بالمنطقة، وبتطاون على الأخص. وما كان اسماعيل ليحتاج إلى ثالث في ضبط شؤون المنطقة الشمالية، فقد استقامت فيها الأمور بالرجلين، ووقف كل منهما للآخر موقف الناقد المتبصر، وأدرك كل منهما أن مولاي اسماعيل لا ينتظر أن تتعدد الأسباب للبطش، ويكتفي في بطشه بالسبب اليسير، فكان كل منهما حريصا على أن يعلم ما عند صاحبه من نقد ليكيف نفسه على شاكلته. وقد أيس الأوربيون من أن يحصلوا على شيء دون حاجة الى السلطان، وأيسوا أن يجدوا أدنى مساعدة من الولاة، فقد أصبحوا مسيرين زمامهم بيد السلطان، وإذا همهم العالم الهمهمة بين شفتيه وصلت الى مولاي اسماعيل الذي يعرف كيف يقتص من المتلاعبين بشؤون الدولة. فلما مات مولاي إسماعيل، وخلف أعياصا ضعافا، وشعبا سئم الراحة، وعمالا كادوا يختنقون من الضغط، وجندا من العبيد مفتقرين الى سيد مرهوب محبوب، إذا بالفتنة تعم، وإذا بالعمال يشعرون بارتفاع الضغط. والتجأ مولاي أحمد الذهبي الى تعذيب كبار العمال، وأودع القائد أحمد الحمامى السجن، وقام الفقيه عمر لوقش بشأن تطاون. وسرعان ما عصفت الأحداث بمولاي أحمد الذهبي، فاستطاع القائد أحمد أن يخلص من السجن ويرجع الى

عمالته، ويريد أن يدرج فيها تطاون، فيمتنع عليه لوقش. وتنشب حرب بين لوقش والقائد أحمد فينتصر لوقش، وتلعب به نشوة الظفر ويعبث به خيال الأدب، فيزهو ويغني ويعد نفسه بالملك الواسع. والملك عقيم لا يعرف قرابة، ودعوى رجل مسؤول قادر على بعض ما يزعم لا تحمل على العجز، وإنما تحمل على الثورة، وما زاد الفقيه عمر لوقش على أن حرم نفسه من ثمرة النصر، وولى منهزما هزيمة أدبية أمام قرينه القائد أحمد، الذي صفق لدعوى لوقش وزاد فيها ما يعلم وما لا يعلم، حتى فهم أبناء مولاي إسماعيل أنهم أمام خطر داهم. وظلت تطاون منقادة للوقش زمنا وجيزا، ولم يطل الأمر كثيرا حتى تخير القائد لنفسه أن يؤوي اليه مولاي المستضيء ابن مولاي اسماعيل، ويبايعه بالخلافة، ويتولى هو مؤازرتها بماله وأتباعه من أبطال الريف، ويستصدر من سلطانه مولاي المستضيء ولاية تطاون من جديد، فيدخلها القائد أحمد بصورة مشروعة، وينتقم من أهلها، ويغرب(1) الفقيه عمر لوقش الى تارودانت حيث يتمكن أمر مولاي المستضيء. وظل الفقيه عمر لوقش بالسجن، سجن تارودانت، مدة غير قصيرة مضيقا عليه، بين يديه جدران ومن خلفه جدار والى جنبيه هضبة من الجير (حسب تعبير التطاونيات).

---

(1) عثر البحاثة سيدي الحاج محمد بن أحمد داود على رسالة من مولاي عبد الله تدل على أن انتقال لوقش إلى تارودانت كان وجه الكرامة لكي يشغل مكانه عامة في البلاط العبدلي. ويشك المؤرخ داود كثيراً في نسبة «الصبوحي» إلى الفقيه عمر لوقش.

وتذكر الأساطير أن الفقيه عمر لوقش أنشأ قصيدته "الصباح" باللغة الدارجة -وهي من أمثال قصائد الملحون التي يتغنى بها في نوبة العشاق الخاصة بوقت الصباح عندما كان سجينا بسجن تارودانت واستطاع أن يعرف من حراس السجن الوقت الذي يمر فيه مولاي المستضيء على مقربة من السجن، بحيث يسمع صوته، فلما كان مارا، رفع الفقيه عمر لوقش عقيرته يغني صباحه:

فاح الورد والسوسان ما بين الأغصان
ورش الندى الريحان الخ...

وكان الفقيه ذا صوت حسن، وكان مولاي المستضيء ولوعا بالموسيقى، فسأل عن مصدر الغناء وعن المغني فذكر له أن لوقش يتغنى لأول مرة بسجنه، فأمر بإحضاره والإفراج عنه وتغيير هيئته. فلما مثل بين يديه خاطبه خطاب من لم يذق ألم العذاب، وتأدب ادب الملوك، فذكر له مولاي المستضيء أنه ما أمر بسجنه، وإنما ذلك من صنع الأنصار، وفهم لوقش ما يعرض به مولاي المستضيء من أمر القائد أحمد. ولم يطل لوقش بعد خروجه من السجن الا أياما قلائل حتى قضى نحبه، ودفن بتارودانت، ويعرف بها قبره بقبر الفقيه الغربي.

ملوك يتقاتلون

كان المغرب في تلك السنوات يروج ويموج ففي كل جهة ولد من أبناء مولاي اسماعيل يدعو إلى نفسه ويضع يده في يد

عامل كبير ذي مطامع. وأهم هؤلاء الأعياص مولاي عبد الله، الذي كان يحتمل كل شيء من الرعية الا أن تبايع غيره من أبناء أبيه. وفي هذه الآونة يأتي «البارون آل الريبيردا » ويُحسِّنُ لمولاي عبد الله أن يجلب بخيله ورجله على سبتة، بعد أن تم له النصر على القائد أحمد الحمامي الريفي. ولكن الحملة على سبتة لم تكن موفقة، فيهوي مع الهزيمة نجم البارون الى الأبد، ويقنع بالعزلة في تطاون، يتردد بين الإسلام والأرثوذوكسية والكثلكة، ولكنه قطع في النهاية وبت واعترف أنه نصراني.

واحدقت بتطاون ظروف جعلتها تخلص لمولاي عبد الله، فإن مولاي المستضيء هو الذي نكبها، وسلط عليها القائد أحمد الريفي، وفي تطاون يقيم البارون آل الريبيردا، الذي اتصل مرة واحدة بمولاي عبد الله. وعرف مولاي عبد الله لتطاون موقفها، فعاملها بنبل وكرم، وخولها نوعا من الاستقلال الداخلي، جزاء لها على حسن طاعتها. فأخذ التطاونيون يولون على نفسهم من أرادوه، فنصبوا عليهم الحاج محمد اتميم الى أن قتله بعض آل "الصردو وبعد الحادثة بأيام قلائل ورد مولاي عبد الله على الغرب، فخف وفد تطاون لمقابلته، وعند المقابلة فرح بهم السلطان لحسن طاعتهم وتمسكهم بعهده، وعندما اعتذروا له عن قتل عاملهم أتميم، قال لهم "أنتم الذين وليتموه، وأنتم الذين قتلتموه" وأذن لهم السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل أن يختاروا لهم عاملا منهم، فاختاروا لها الحاج محمد لوقش ابن الفقيه عمر لوقش السابق الذكر. وكان يكفي مولاي عبد الله أن

يعلم أن في صدر ابن الفقيه عمر حزازة على مولاي المستضيء ليصادق على توليته، وكان ذلك سنة 1146هـ (الموافق 30 نونبر 1750 الى 19 نونبر 1751م). وكان الحاج محمد لوقش ورث عن أبيه الفقيه عمر شغفه بالعلم، ورغبته في تحسين علاقاته مع الدول الأجنبية، وكانت علاقته مع الإسبانيين جيدة الى الغاية، الى درجة أنه لما كانت سنة 1146هـ قدم أهل تطاون على السلطان المولى عبد الله لحضور عيد المولد الكريم وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف مثقال، وقدم معهم باشدور الاسبانيول ومعه مائة ألف ريال وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك بقصد فكاك أسرى "جنسه،" هذا ولم يكن مضى على ولاية لوقش إلا سنة أو أقل من سنة. ولم يكن الحاج محمد لوقش مجهولا بين الأجانب الذين لهم مصالح بتطاون، فإن أباه كان من أشد الناس ارتباطا بالأجانب وفهما لعقليتهم، وفي أحضان أبيه تربى الباشا الذي انتخبه قومه، وما زادته الولاية إلا تثبيتا لقدمه في العلاقات مع الأجانب. وواضح من هذا أن لوقش لم يكن يقوم بأعمال عدوانية ضد سبتة لأن علاقاته مع الإسبانيين كانت جيدة، وكان عامل تطاون عليه أن يسهر على رباط سبتة، وأن يحترز في تطبيق سياسة السلطان على الحدود. وما كانت حروب الحدود تعتبر حربا على الدولة المجاورة، فإن المغاربة كانوا في حرب مستمرة بسبتة ومليلية، ومع ذلك فإن إسبانيا لم تكن تعتبر أنها في حالة حرب مع المغرب، بل كانت المناوشات على الحدود عملا من حق المغاربة أن يقوموا به متى أرادوا، إلا أن

يكون منهم التزام بإيقاف الحرب في تلك المنطقة. وكانت الحدود تتأثر بالولاة أكثر مما تتأثر بالسلطان. ولقد ظل النقسيسيون يديرون سياستهم مع سبتة طبق اجتهادهم مدة القرن الذي كان لهم فيه شأن مقدمية الجهاد بتطاون. وظل المغاربة يشنون الغارات على السفن البحرية في طرق مواصلاتها المائية، وأوربا لا ترى في ذلك من باس وترد المثل بالمثل دون أن تحسب لذلك كبير حساب. وكان ملوك إسبانيا والبرتغال منصرفين الى الدنيا الجديدة، مشغولين بالتوسع فيها عن السياسة الإفريقية، غاضين الطرف عن خفيف الضرر الذي يلحقهم من المغرب ما دام المغاربة لا يقومون بحركة حديثة منظمة لغزو أوربا. وعم الرخاء البر الكبير، وأثرت شعوبه ودوله بعد الاستمتاع بخيرات الدنيا الجديدة. وكثرت السفن في البحر، واحتاج البحارة الى الأزواد فكان البحارة يقفون على شواطئ المغرب، لا يهمهم سوى أخذ الأزواد لمواصلة الأسفار في لجج البحار، لا يتركون نفوسهم تشتغل بمناوشة المغرب لأن بلاد البربر فقيرة، وأهلها أشداء، بينما أمامهم أميركا البكر، الضعيفة الغنية.

صناعة المتاجرة

ولما كانت أيام مولاي إسماعيل كان هو الذي ينتفع من المتاجرة مع السفن الأجنبية، فلما مات مولاي اسماعيل طفق الولاة في أطراف المملكة يعملون لحسابهم، ويتاجرون فيحصلون على المال دون ان يحتاجوا لنهب الرعية. وكان الحاج محمد

لوقش أولى من يجيد صناعة المتاجرة، فأخذ يقايض السفن الأوربية، والانجليزية بالخصوص، لما كان لوالده من علاقة مع التجار الانجليز. ولا نبرئ الحاج محمد لوقش حصته من القرصنة، وما كانت القرصنة الدولية تجد ملتجأ أفضل من مرافئ المغرب، فإن لصوص البحر كانوا يتزودون دون أن يسألهم سائل عن جنسيتهم، وعن وضعية أسطولهم، وهذا من شأنه أن يجلب المغامرين للمرافئ المغربية للتزود والمبادلة. وما نحسب الأسرى العديدين الذين كانوا يوجدون بالغرب من اصطياد القرصنة المغربية وحدها، بل نظن أن قد كانت هنالك علائق محكمة بين المغاربة والقراصين الدوليين، فيأتي الاسطول المتلصص، فيدفع البشر للمغاربة ويأخذ عوضا عنهم ثيرانا وغنما وسمنا وعسلا، ثم ينسب كل ذلك العدوان الى المغرب والمغاربة. وما كان لوقش بحاجة الى أن يذكر انه بنى مسجده ومدرسته من مال المغنم، فإن الثروة الطائلة التي ورثها عن أبيه يفي اليسير منها بأكثر من بناء مسجد ومدرسة. لكن أهل الورع كانوا يرون أن ثروته مشوهة، لأنه وأباه اكتسباها عن طريق الجاه، والمفهوم أن المال المكتسب عن خصوص الجاه قلما يسلم من غصب ومظلمة، فلكي لا يكون المسجد مع مدرسته، ولكي لا تكون المدرسة مع مسجدها مشوهة، اضطر لوقش الى أن يقسم ان المدرستين من مال المغنم ومن أحل الحلال. وكان للوقش أربعة مصادر للمال له أن يأخذ من جميعها أو من بعضها، فله أن يأخذ من أصدقائه الإسبانيين مالا مقابل تخفيفه الضغط عن سبتة، وله أن يكتسب

من المتاجرة مع السفن الأجنبية الراسية بالشواطئ سواء منها ما كان تابعا لدول محترمة أو كان للمغامرين، وله أن يبني أسطوله للغارات على السفن واختطاف المسافرين، محاربين ومسالمين، وله قبل كل شيء الثروة التي ورثها عن أبيه. وعلى كل حال فإنه اختار لبناء المدرسة والمسجد أطيب مكسب في رأيه.

عمال وموانئ

ويحدثنا المؤرخون أن السلطان مولاي محمد ابن عبد الله، قبل أن يتولى السلطنة، كان خليفة لأبيه بمراكش وما والاها، وأنه في أسفي فتح باب المتاجرة مع أهل البحر، فكسب من ذلك أموالا طائلة أصلح بها شئونه. وعرف مولاي محمد قيمة مداخيل التجارة البحرية، وأدرجها في لائحة أعماله، حتى أنه لما تولى السلطنة بنى مدينة الصويرة ليحشر إليها تجارة جنوب المغرب. ولقد عاقب بعض العمال بالجنوب لأنه استقل بمداخيل المرافئ وهذا واضح في أن العمال الذين تمتد عمالاتهم الى السواحل كانوا يستغلون المرافئ للتجارة ولحسابهم الخاص. وقد أذن السلطان مولاي عبد الله، في أول الأمر، لأخيه مولاي المستضيء، بعد أن أيس من الملك، أن يسكن مدينة أصيلا، ولما سكنها فتح باب المتاجرة مع الأساطيل البحرية فكسب من ذلك أموالا طائلة، خشي السلطان مولاي عبد الله أن تحمل مولاي المستضيء على الطغيان، فيعود إلى طلب الملك، فأمره بالانكماش في سجلماسة. وما كان لوقش ليشذ عن هذه

القاعدة، فلا بد أنه كان يستفيد من التجارة، وأمامه ميدان واسع، فبين يديه شواطئ تمتد بين غمارة وانجرة، وبهذه المنطقة موانئ جيدة للرسو. ويذكر المؤرخون أن مولاي محمدا بن عبد الله، عندما كان خليفة لأبيه السلطان مولاي عبد الله، كان يراسل العمال، ويأمرهم بالأوامر، فكان بعضهم يمتثلها وبعضهم لا يمتثلها، وكان عامل سلا فنيش وعامل تطوان لوقش ممن لا يحرص على تنفيذ أوامر مولاي محمد بن عبد الله. ولا شك أن الأوامر كانت تتصل بالمال، وتخصيص حصة من مداخيل المراسي لخليفة السلطان. وكان الحاج محمد لوقش إذا ورد عليه أمر من جانب مولاي محمد يقول: ان المرأة الواحدة لا تتزوج رجلين اثنين في آن واحد، ويقصد بذلك أن الذي عليه أن يمتثل أوامره هو السلطان مولاي عبد الله. وما كان لوقش، في الواقع، يحمله على قوله هذا مجرد الإخلاص للسلطان، فإنه عليم بأن السلطنة الحقيقية العملية إنما هي لمولاي محمد، أما مولاي عبد الله فلم تبق له إلا سلطنة اسمية، وقد اعترف هو بنفسه بذلك حينما شكا له مولاي المستضيء مما فعله معه ابن أخيه مولاي محمد، فأجابه السلطان مولاي عبد الله بأن ولده مولاي محمد أشد قوة مني ومنك، فلا سبيل لي عليه، فكان الناس يعلمون الحقيقة مثل ما اعترف بها نفس السلطان مولاي عبد الله. وكان أغلب العمال يسيرون بمقتضى هذه الحقيقة، ويمتثلون أوامر مولاي محمد بن عبد الله. أما فنيش ولوقش –وآخر نسب كل منهما شين، وكلاهما من أصل أندلسي– فإنهما عرفا شدة تيقظ مولاي

محمد، وأعجبهما تساهل مولاي عبد الله، فتمسكا بعرف القانون، وأدرك من أمرهما مولاي محمد أنهما أظهرا الإخلاص للسلطان فرارا من مناقشة الحساب. وكانت وطأة لوقش أشد على مولاي محمد بن عبد الله من فظاظة فنيش. فلما كانت سنة 1171هـ، وبويع فيها مولاي محمد سلطانا على المغرب، أبقى عمال أبيه في وظائفهم، حتى فنيشا السلاوي، ما عدا ما كان من لوقش فإنه عزله عن وظيفه، وولى مكانه أحد الحضريين وهو القائد عبد الكريم ابن زاكور الذي كان يتولى وظيفا في سلك كتاب السلطان مولاي عبد الله.

وخاف لوقش بطش السلطان مولاي محمد، وكان في استطاعة لوقش أن يعتصم بسبتة، كما كان يفعل ذلك بعض الحكام، وتتوسط لهم اسبانيا مع سلطانهم، أو تؤويهم وتمدهم بالنفقات الواسعة، كما كانت تفعل مع بعض من يأوون إليها من ذوي الحيثيات بالمغرب. لكن لوقش التقي ارتأى ما هو أفضل من ذلك، فاعتصم من السلطان بالتجائه الى ما يعظمه السلطان، وقصد جبل العلم في جوار ضريح الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، رضي الله عنه. وعرف الاشراف، رضي الله عنهم، لضيفهم كرامته ودينه، فآووه محترما معظما. وبنى لوقش خلف الحرم العبسي المشيشي مسجد أبناء البادية، ومكث يعبد به الله حتى أتاه اليقين، فدفن هنالك في جبل العلم.

القسم الثاني

وترك لوقش بتطوان، على قصر مدة ولايته، مدرسة لوقش التي جمعت شتات طلبة تطاون وقاصديها من الراغبين في تعلم العلم. فلقد قامت تطاون من أول يوم أعاد فيه بناءها مهاجرة غرناطة والأندلس بقيادة القائد أبي الحسن علي المنظري، رضي الله عنه، على الدعائم التي لا تقوم مدينة إلا عليها، وأهمها وأشرفها الناحية العلمية، فلم ينقطع عنها العلم والتعليم والعلماء والمتعلمون في فترة من الفترات مهما كانت عصيبة. وفي أيام أبناء المنصور السعدي، لما كثرت الأهوال بفاس، قصد تطاون، التي هي في نجوة من الفتن، جلة من كبار العلماء من سادتنا بني المجد رضي الله عنهم، وغيرهم. وكانت دراسة العلم إما بالمساجد أو الزوايا، وأقدم مدرسة بتطاون عرفها التاريخ كانت جزءا من المسجد الأعظم الحالي، فإن السلطان مولاي سليمان، رضي الله عنه، لم يحدث الجامع الكبير وإنما أعاد بناءه، وضم إليه المدرسة التي كانت تجاوره، وزاد في ذلك بعض الرباع المجاورة. ومن الراجح أن الجامع الكبير، الذي حبس عليه مولاي الرشيد كتبا ينتفع بها الراغبون في التحصيل، هو نفس الجامع الكبير الحالي، وإنما وسعه مولاي سليمان، وأدخل فيه المدرسة التي هجرت بعد بناء مدرسة لوقش.

بين تطاون وفاس

ويجهل جهلا تاما باني أول مدرسة بتطاون. والظاهر أن مدرسة الجامع الكبير كانت عبارة عن بيوت معدودة ملحقة بالمجسد، على طراز مسايد جامع العيون، فكان الطلبة موزعين، بعضهم يسكن المدرسة، والبعض الآخر يستقر في المسايد الملحقة بالمساجد، فلم يكن مسجد من المساجد الا وبه بيوت للخزن، ولسكنى المنتمين للصلاح من عباد وطلبة علم. وكانت الدراسة متفرقة في المساجد والزوايا. وفي الكثير كان العالم يستقل بمسجد أو زاوية لا يشاركه غيره في الدراسة بها، ولا سيما إن كان من كبار العلماء. أما أن لا يجتمع بالمسجد مدرسان في آن واحد فهو ما كان معروفا معمولا به. ورغم أن مسجد القرويين بفاس هو القدوة لبقية المساجد في البلدان المغربية فإن تطاون لم تقلد فاسا في كل شيء. فإن القرويين بفاس هي التي تجمع بين الطلبة، فإن كبار المدرسين والمشايخ يدرسون بها مختلف العلوم، ويجوز أن تجمع في الوقت الواحد بين عدة دروس، فيكون هذا الدرس في هذه السارية، وذاك في تلك. أما تطاون فقلما يجمع فيها مسجد بين مدرسين اثنين في يوم واحد، فضلا عن أن يكون في وقت واحد. فالطلبة بتطاون، قبل مدرسة لوقش، لا مركزيون فهم يسكنون في مساكن متفرقة، ويدرسون في مساجد متعددة. أما بعد بناء مدرسة لوقش فإن المدرسة وحدت الطلبة، فمنهم من

يسكنها ومنهم من يقصدها للمطالعة وحفظ المتون والاستجمام. ومهما كان الطالب بتطاون فلا بد أنه متصل بمدرسة لوقش، فالمدرسة المتخذة للسكنى هي التي تربط بين الطلبة بتطاون، لأن مساجد الدراسة متعددة ومقر الطلبة متحد. وهذا ما تخالف فيه تطاون فاسا: فإن الذي يربط بين الطلبة بفاس هو مسجد القرويين، أما مدارس السكنى فإنها متعددة، فالقرويين أصل ومدارس السكنى فروع. وفي تطاون توجد مدرسة السكنى بين الطلبة، وتختلف المساجد التي يتلقون بها الدروس. ولهذا فإن لمدرسة لوقش بتطاون مغزى ليس لمدارس السكنى بفاس، ولكل بلد جوه الخاص وتقاليده الخاصة.

ويزعم بعض التطاونيين أن الحاج محمد بن الفقيه عمر لوقش، رحمه الله وتقبل منه عمله، إنما بنى المسجد والدور الأول الأسفل من المدرسة، أما الطبقة العليا فمن بناء السلطان مولاي محمد بن عبد الله. وهذا احتمال يبعده أن المؤرخين ذكروا في معرض الثناء على السلطان مولاي محمد بن عبد الله أنه أمر عامله على طنجة، القائد عبد الكريم بن أحمد الحمامي الريفي، بأن ينهض الى تطوان ويبني برج مرسى مرتيل. ويطري المؤرخون هذا العمل، ولو كان مولاي محمد أمر بالدور الأعلى للمدرسة لما تأخروا عن ذكره لأنهم يتعرضون حتى لبناء سقايات الماء وإصلاح الأبواب. ولومس السلطان بالبناء المدرسة لاختفت نسبتها الى لوقش اختفاء كليا.

مدرستان

وعرف السلطان مولاي محمد بن عبد الله ان لا بد له من خالصة بتطاون. فقرب منه القريشيين فكانوا سمعه وبصره بتطاون، وكان التطاونيون ينظرون اليهم في نوع من الخوف والحذر. واقتنى أبناء قريش المال والعقار، وكسبوا الجاه والسلطان، ونبغ منهم علماء تولوا خطة القضاء. وودوا أن ينافسوا لوقش، فأسسوا مدرستهم بحي العيون، فأقبل الناس على المدرسة الجديدة إقبالهم على الجديد، لكن الخلود إنما قدر لمدرسة لوقش، حتى أن الكثيرين لا يعرفون أن بتطاون شيئا اسمه "مدرسة ابن قريش وكانت هنالك عوامل خلدت اسم لوقش وأهملت إسم "مدرسة ابن قريش فإن لوقش لما فرغ من بناء مسجده ومدرسته، سلمهما جملة وتفصيلا للأحباس الكبرى وقطع علاقاته بالمؤسستين، تاركا شأنهما لمن له النظر في الأحباس العامة، وكان لموقع مدرسة لوقش أثر في حياتها فإنها في وسط المدينة، تحدق بها الأسواق؛ بينما "مدرسة ابن قريش ظلت في يد أعقاب الفقيه، لا تعرف الأوقاف العامة عنها قليلا ولا كثيرا، وهي في طرف المدينة وفي حي يقل به سكنى الأرستقراطيين الأندلسيين الذين سيطروا على الحياة العامة بتطاون، وأصبحت الأحياء التي يقطنون بها هي تطاون الأصلية، دون ما التحق بها مما أحدثه الواردون الذين لم يبعد أثرهم في تكييف الحياة العامة بالمدينة. وكانت باحات المدرسة تفرش

بالحصائر، لأن الداخلين إليها عليهم أن يخلعوا نعالهم حرمة لمقر يسكنه طلبة العلم. وكانت أروقتها من متممات المسجد، فإذا ضاق بالمصلين فامامهم براح المدرسة عاليها وسافلها. والمعتاد بالمغرب أن تكون سمة المدرسة هي الغالبة، بحيث يكون من المفهوم أن المسجد مسجد المدرسة وأفضل جزء من أجزائها. أما مسجد لوقش فإنه أكبر من ذلك، فله شخصيته القائمة بحيث يسمى جامع لوقش، ولا يسمى مسجد مدرسة لوقش. والمدرسة واضح فيها أنها ذات شخصية مستقلة، لا يصح أن تكون من المسجد بمنزلة بيوت القناديل ومستودعات الحصائر، وهذا يفيدنا أن لوقش، رحمه الله وتقبل منه، قصد من أول وهلة لبناء مسجد ومدرسة، وأنهما مؤسستان منفصلة إحداهما عن الأخرى لا يربطهما إلا التعاون على الدين بين أية مدرسة للعلم ومسجد للعمل من صلاة ووعظ واعتكاف.

والعمل خالصا لله لا يتنافى مع أن تكون الدوافع إليه خطرت في البال متكررة متعددة، حتى انتهى جميعها الى الفناء، وتغلب جانب النية الحسنة على بقية النزعات: فإن تطاون لم تكن بها دار إمارتها، وإنما كان الولاة يبنون لنفسهم الدور الفخمة لتبقى لهم بعد الولاية. ولقد كان لأبناء النقسيس، رحمهم الله، دور أشبه بالقصور متتابعة متصلة يسكن بها كبراؤهم وأتباعهم وبها اصطبلات خيولهم، وتستغرق تلك الأموال «زنقة المقدم» وما اتصل بها الى «الحدادين» «والمشور» الى أن يحدها «الفدان». وكانت محلة ثكنة الحرس الخليفي وما جاورها

من اصطبلات المخزن، مرابط خيول المقدمين من أبناء النقسيسيين الذين دامت عمالتهم توارثية نحو قرن من الزمان. وعندما استصفى أموالهم مولاي اسمعيل العلوي، منحها للشريفين مولاي محمد ومولاي عبد الله ابني مولاي العربي ابن الشيخ مولاي التهامي الوزاني. فلما جاء الباشا أحمد بن عبد الله الحمامي الريفي، طلب جانبا منها فتنازل له الشريفان عن محل «المشور»، فبنى فيه قصر الإمارة، وبنى به جامع الباشا. ومن الراجح أن جامع الباشا كان مسجدا لآل النقسيس، ولم يكن في عهدهم تقام فيه الخطبة، فلما جاء القائد أحمد وسعه وأسند النظر في بنائه إلى مهندس بناء.

مسجد الباشا

وتذكر الأسطورة أن قد كان بالمدينة مهندس في النجارة كان شيخ النجارين، فلما عهد القائد أحمد لشيخ البنائين ببناء مسجد الباشا وجد شيخ النجارين وأمينهم في نفسه، حيث أن المباني العامة كانت تسند في الأكثر إلى أميني البنائين والنجارين وعندما دار الحديث في مجلس النجارين عن إسناد أمر إنشاء المسجد الى أمين البنائين وحده، قال أمين النجارين. لا بأس عليكم فإن الرجل لا بد أن يتوقف على النجارة، وسوف يحتاج المسجد الى سقف. وبلغ الخبر أمين البنائين، فغضب وآلى على نفسه إلية أن لا يحتاج الى نجار. ثم مضى البناء في طريقه، وبنى المسجد على شكل المساجد المسقوفة بالخشب، فلما جاء

وقت السقف، جعله قبابا صغيرة جميلة. ووصل الخبر الى أمين النجارين فقال سوف نرى ما يفعله في شأن الأبواب. وصمم البناء على أنه سوف ينجز كل المسجد دون حاجة الى النجار، فقيل له: وماذا تصنعه في الأبواب؟ فأكد أنه سيتخذ أبوابا من بناء، لكنه فكر وأطال التفكير، فما وجد من حيلة للباب الا أن يكون من خشب. فلما لم تبق الا الأبواب، وأصبح المعلم النجار مهددا بالهزيمة، إذا به يقرر في نفسه أن يهيم على وجهه دون أن يعلم به أحد. وفي الليل قصد بنايته، وكتب على الباب «اطبع الباب، وارحم المعلم النجار»، ثم خرج من المدينة متسترا، فكان آخر العهد به. وجاء شيخ النجارين وأقام الأبواب، وأصبح المسجد يسمى مسجد الباشا، وأل في الباشا تشير الى القائد أحمد بن عبد الله الحمامي، وأصبح المسجد مسجد خطبة، واكتسبت تطاون "دار مخزن" تناسب كرامة تطاون. فلما تولى القائد الحاج محمد لوقش وأصبح باشا المدينة، وهو لا يقدر أن يفتح عينه في شيء يذكره بغرة الحمامي الذي فعل بأبيه الفقيه عمر لوقش الأفاعيل، صمم العزم على أن يبني مسجدا ينسب للوقش لا للباشا، وزاد على ذلك بالمدرسة.

ويذكر التطاونيون الأقدمون أن مولاي عبد الله، قبل أن يتولى سلطنة المغرب أو كان يتولاها وعزل في إحدى المرات، أخذ يهيم في المغرب ويتجول في ربوعه في صورة طالب علم. ولما وصل الى تطاون سأل عن مدرسة الطلبة لينزل ضيفا بها، فأخبر أن المدينة لا مدرسة بها، ما عدا مدرسة الجامع الأعظم. فلما

قصدها لم يجد بها الا بضعة بيوت خربة، فبات بها، وحدثه الطلبة أن المدينة في حاجة الى مدرسة. فلما كانت أيام سلطنته ووفد عليه وفد تطاون، وأسند إليهم أمر تولية عامل منهم عليهم، أمرهم ببناء مدرسة فقام القائد الحاج محمد لوقش بتنفيذ رغبة السلطان. وكان المغاربة مومنين بأن السلطان لا بد أن يتجول في أطراف مملكته ليطلع بنفسه على حالة الرعية.

حوالة ضائعة؟

ومن المؤسف حقا ضياع حوالة "مسجد لوقش فإن التطاونيين عندما أفرغوا المدينة عام 1276هـ ثم رجعوا لسكناها بعد الحرب، فقدوا كثيرا من الذخائر المادية والأدبية، ومن جملة ما ضاع بعض حوالات المساجد. فضاعت حوالة الجامع الكبير، ولكن الوضعية الخاصة لهذا المسجد، الذي اتخذته تطاون عمدة المساجد، جعل حوالة مسجد تطاون تتكون شيئا فشيئا. ومن جملة الحوالات التي ضاعت حوالة مسجد لوقش ومدرسته فلا يدرى هل كان لها أحباس أم أن الحاج محمد لوقش بنى المؤسستين وتركهما دون حبس. ولكن الذي يقرأ المراسلة التي دارت بين السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمن، وبين عامله على تطاون القائد ابن الخضر السلاوي، يلاحظ أن المؤسستين كانت لهما أوقاف. ونسخة هذه المراسلة موجودة في حوالة الجامع الكبير، وملخصها أن القائد السلاوي، الذي تولى عمالة تطاون

بعد حرب سنة 1276هـ، وجه رسالة الى السلطان يخبره فيها بأن أحباس الجامع الكبير لم تبق مداخيلها تكفي للإنفاق على تكاليف هذا المسجد، في حين أن المساجد الأخرى أو البعض منها لها من المداخيل ما يفضل عن حاجتها. وارتأى العامل السلاوي أن يلغي ما كان معمولا به من استقلال كل مسجد بأحباسه التي يتصرف فيها ناظر خاص، وأن تسند نظارة سائر مساجد المدينة الى ناظر الجامع الكبير، فأجابه السلطان بالموافقة على ذلك. ومن ذلك الحين أصبحت تطاون ليس لها إلا ناظر واحد يسير أحباس المساجد، وأصبحت النظارة وظيفا إداريا يسند الى صاحبه بالتعيين، بعد أن كانت نظارة المساجد تعتبر وظيفا دينيا محضا تولي جماعة المسلمين من أهل الحومة على مسجدها من يليق بها. وكان السلطان مولاي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل هو الذي أعطى الرعية حق انتخاب القائمين بالوظائف الدينية المحضة. فإن مولاي محمد جمع جماعة من كبار العلماء وأشهدهم على نفسه أنه من ذلك الحين يتبرأ من تبعة تولية أصحاب الوظائف الدينية، وأن توليتهم من حق الجماعة التي تتصل بها هذه التولية. ولو أن ظهيرا مثل هذا صدر في أيامنا هذه لتبعه قرار وزيري أو أكثر توضح فيه الوظائف الدينية. لكن ظهير مولاي محمد بن عبد الله لم يتبعه تفصيل لهذا الاجمال، على الأقل فيما نعلم. لكن تطبيق الظهير بين مجمله فأصبحت وظائف نظارة المساجد، والإمامة، والآذان، والوعظ، وتراويح رمضان، كل أولئك تعين القائمين بها جماعة

المسلمين، وإن شئت قلت أصبحت وظائف انتخابية يتولى الانتخاب فيها أعيان الناس. ولم تحسب وظائف القضاء، والحسبة، وغيرهما من الوظائف الدينية، بدليل أن السلطان بقي يولي أصحابها دون إشراك للرعية. وكأن السلطان مولاي محمد ابن مولاي عبد الله ابن مولاي اسماعيل غلب في وظيفة القضاء الناحية الإدارية على الناحية الدينية، وجعلها من مصالح الدنيا. وظل الناس يعالجون مهمتهم في الانتخاب حتى انقرض بظهير مولاي محمد بن مولاي عبد الرحمن. وكان لجامع لوقش ومدرستها ناظر، وذلك يوجب أن تكون لها أحباس.

أحباس مدرسة لوقش

على أنه كان من العار أن يبني الرجل المسجد أو المدرسة ويتركها دون أن يوقف عليهما من الوقف ما يقوم به المسجد أو المدرسة، إلا أن الطلبة الساكنين بمدرسة لوقش لم يكونوا يأخذون الخبز من الأحباس بل كان الطالب الساكن بالمدرسة لا يستفيد منها أكثر من السكنى. بخلاف ما عليه عمل فاس، وهو المتبع بالمغرب، فإن لكل مدرسة أوقافا يُشْتَرَى من دخلها عدد من الخبز، يوميا ويوزع على الطلبة. فإذا كثر عدد الطلبة على الخبز، نقص للطالب بمقدار زيادة عدد الطلبة عن عدد الخبز وإذا قل عدد الطلبة بسبب غيبة في فرصة أو غيرها فإن عدد الخبز يوزع على الموجودين بالمدرسة، وقد يأخذ الطالب الثلاث والأربع خبزات أو أكثر من ذلك في اليوم. ولا يفرق في التوزيع بين غني وفقير،

فإنما يأخذها الطلبة لوصفهم الطلبي ولو كانوا أبناء الأغنياء. هذا في فاس. أما في تطاون فلم يكن الطلبة يأخذون خبزا ولا غيره من الأحباس ولا يُدرى هل كان هذا هو الوضع من لدن تأسست مدرسة لوقش أم أن العمل بها كان كالعمل بفاس، ثم لما قلت مداخيل الأحباس، بسبب الخراب الذي أصيبت به تطاون، اضطر النظار الى غصب حق الطلبة. والواقع هو أن الطالب المقيم بمدرسة مر عليه زمن طويل وهو لا يستفيد من سكناه بالمدرسة أكثر من السكنى، ولا يوخذ من هذا أن المدرسة لم يكن يعمرها إلا من يستطيعون الإنفاق على أنفسهم دون مساعدة، بل كان الطلبة في رفاهية من العيش، فما من طالب الا وله من أهل تطاون من يعوله بالمعروف. والمعروف كلمة معناها الطعام الذي يعطى للطلبة بصفة مستمرة يومية، وفي أوقات منتظمة، وقلما يوجد بيت غني أو فقير لا يعطي المعروف للطلبة إلا أن يشتد فقر أهل البيت، فما من حرج على الذين لايجدون ما ينفقون.

والشؤون العلمية المحضة لا بد أن تتأثر بالجو المحدق بها، فإن لوقش بنى مسجده لينافس به جامع الباشا، الذي بناه القائد أحمد بن علي بن عبد الله الحمامي، وزاد عليه بناء المدرسة لتقوم مقام المسجد الذي أسسه القائد أحمد برباط سبتة، لأن لوقش لم يكن يستطيع أن يسمع عدو أبيه وعائلته وأهل بلده يؤسس من المؤسسات ما يستقل بفضل إحداثه. ثم دالت دولة آل لوقش وأصبح لوقش منظورا إليه من السلطان مولاي محمد بن عبد الله نظر الريبة. ونشأت في أحضان السلطان مولاي محمد بن مولاي

عبد الله ابن مولاي اسماعيل أسرة جديدة بتطاون وأوجب عليهم وضعهم أن يكونوا متبرمين مما يتبرم منه سلطانهم. والحاج محمد لوقش، وإن لم يتعرض سبيل السلطان في شيء، فإن وزعة السلطان والغوغاء من خدام الاعتاب الشريفة صالوا وجالوا في ميدان خلا لهم فيه الجو فباضوا وصفروا ونقروا ما شاءوا ان ينقروا. ورغب بنو قريش في أن ينتزعوا من التاريخ أحدوثة القيام بأعباء العلم، وكانت مدتهم الطويلة التي قضوها في القضاء كفيلة بأن تقوم بتنفيذ بعض أمانيهم. وكانوا في بناء مدرسة ابن قريش أكثر صدى من لوقش، فإنهم أحدثوا المدرسة ومسجدها الصغيّر، وكانت صبغة المدرسة غالبة عليها. وبعد إحداثها عمروها بالعلم، فكانوا يغذون مدرستهم بعلمائهم المدرسين، وأموالهم الملفقة، وحمايتهم لطلبة العلم. فالتهبت بحومة العيون شعلة من العلم هرع الى ضوئها التطاونيون والقبليون على السواء، وأصبحت مدرسة ابن قريش بمثابة التعليم الشبيه بالرسمي. وود بنو قريش أن تصبح مدرستهم المركز الأول للتعليم بتطاون، وبنوا الحمام على مقربة منها، ودار القاضي لا يفصلها عنها الا عرض الطريق. لكن التطاونيين بعد أن عزل السلطان مولاي محمد بن مولاي عبد الله عاملهم لوقش، كشف الحال على أنه أماته من جهة، وأحياه من جهة. أماته مباشرة وأحياه من طريق غير مباشرة. وكان إيلاء السلطان على نفسه أن لا يتولى تولية المناصب الدينية وأن يجعلها انتخابية بيد جماعة المسلمين، كان هذا الإيلاء إذنا للناس في أن يعملوا بحريتهم،

فولى التطاونيون من النظار من هو على رأيهم في إنصاف آل لوقش والاعتراف بفضلهم، وتثبيت مركزهم الانتخابي.

آخر محافظ منتخب

وكل شيء يقول: إن التطاونيين ما كانوا ليرضوا عن عزل لوقش لأنهم الذين انتخبوه فلهم حق تولية عاملهم وعزله. وهو حق تمتعوا به زمنا طويلا، وكان لوقش آخر محافظ منتخب لمدينة تطاون، فظلت ذكراه حية وسط الزوابع يحميها ويعطف عليها الشعب التطواني في هدوء وصمت. وكان بنو قريش ينفقون عن سعة وكرم على طلبة مدرستهم، وكان الشعب التطواني كله ينفق على طلبة مدرسة لوقش، فتمركزت المدرسة وصمدت في وجه الزمان، ولم تخل في وقت من الأوقات من الطلبة. وظلت مدرسة بني قريش مدرسة ثانوية، بعد انقراض بني قريش، وما كانت الا جزءا متمما لمدرسة لوقش. ورأى نظار مدرسة ابن قريش أن يحولوها الى مسجد للصلاة، فتحولت المدرسة الى مسجد. لكن مدرسة لوقش ظلت مدرسة: ولقد أتى على تطاون حين ضعفت فيه الحركة العلمية الى حد كبير، وقويت في النفوس الرغبة الى الاستكثار من المساجد ولو لم تمس حاجة إلى بنائها، ولما كان مسجد لوقش متسعا كفيلاً بحاجة المصلين، سيما وهو لا يبعد كثيرا عن مسجد «القصبة» ومسجد «السوق الفوقي»، فإن المدرسة لم يوخذ منها شيء ليتسع به المسجد. ولقد رأينا مولاي سليمان السلطان يضم المدرسة ليوسع برحبتها الجامع الكبير،

ورأينا مدرسة بن قريش تتحول الى مسجد. لكن مدرسة لوقش زادت اتساعا بإدخال الدويرة فيها. وما كانت المدارس الأخرى تموت، وتزداد مدرسة لوقش اتساعا بالحادث الذي لا يقام له وزن، فإن التطاونيين توارثوا العطف على هذه المدرسة لأنها أثر وال ولوه على أنفسهم بأنفسهم ولم تطل مدة ولايته أكثر من سبع سنوات ثم نحي عن وظيفته دون أخذ رأي أهل البلد. ولما نحي لم يعمد الى التملق والاستعطاف للعودة الى الوظيف، ولم يلتجئ الى سبتة ليعتصم بها، وإنما اختار لعزله واعتصامه الحرم المشيشي. فكانت تصرفات لوقش كلها تثبت فضله وتدل على نفس كبيرة هي التي استطاعت أن تحمل أهل تطاون على أن يختاروه واليا عليهم.

وأخذ خصوم آل لوقش يبحثون عن المطاعن، وكان لا بد لهم أن يتوصلوا الى ما يؤثر نوعا من التأثير على عقول العامة. فأشاعوا أن آل لوقش أعقاب يزيد الذي نكل بسيدنا الحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أدركنا من العجائز من كن يتأسفن على آل لوقش أنهم من أعقاب يزيد، مع ما عليه أسرة لوقش بتطاون من أخلاق عليا ظلت محافظة عليها أجيالا متطاولة. ثم هي لا تزال تحمل طابع الفضل الى يومنا هذا. وكان الرد سهلا على أصحاب هذه الدعاوات الفارغة: فإن اللوقاشيين متأكدون من كرم محتدهم، وأنهم من بني أمية زعماء قريش، وأن منهم خلفاء قرطبة، وما رضي يزيد نفسه عن عمله في حق سيدنا الحسين رضي الله عنه. ولقد كان خلفاء قرطبة يعظمون

الأدارسة شديد التعظيم، لكن الشيعة المتطرفة تحمل وزر يزيد على رقاب كل أموي وجد خلال أكثر من ثلاثة عشر قرنا. وجاءت عزلة الحاج محمد لوقش في جبل العلم حجرا التقمه المغرضون، فإن جبل العلم المقر المركزي لآل البيت رضي الله عنهم بالمغرب.

وكانت علاقة الحاج محمد لوقش حسنة مع فرسان أهل الريف، وما كان النزاع بين الفقيه عمر لوقش والقائد أحمد بن علي بن عبد الله الحمامي إلا نزاعا سياسيا لا يتصل بشيء من الاختلافات الأخرى.

أسرة مجيدة

وينبغي لنا إذا عددنا أثر بني أمية في العالم الإسلامي أن نعد عملهم في تطاون، فإنهم الذين بنوا مركز التعليم بها. وكان الأمويون عمليين يقصدون بمفاخرهم التغلغل في الحياة العامة، ولعل الحاج محمد لوقش ما فكر مطلقا في أنه سيحدث في تطاون أخلد الآثار وأنبلها ليحسب هذا الأثر من مخلفات بني أمية. لكن الواقع هكذا فعل. وما خدمت أسرة في الإسلام السيادة العربية والإسلامية بمثل ما خدمها به بنو أمية. وما عرف قيمة أسرة لوقش مثل ما عرفها مولاي اسماعيل العظيم، فإنه هو الذي اكتشف الفقيه عمر، كما اكتشف كثيرا من خيرة رجالات المغرب، فيحق القول بأن أسرة لوقش المجيدة بتطاون إنما نمت وترعرعت في أحضان الدولة العلوية الشريفة، فاستخدمتها

حين كانت قوية، وتركتها حين كانت قوية. إلا أن سياسة مولاي اسماعيل رضي الله عنه، نحو التطاونيين، كانت سياسة ثقة، أما السلطان مولاي محمد بن عبد الله فإن سياسته معهم كانت سياسة حذر. ولقد فتك مولاي اسماعيل بالنقسيسيين فما تأثر الشعب التطاوني، لأن مدة النقسيسيين طالت فاستطالوا فيها على الشعب التطاوني فلما فتك بهم مولاي اسماعيل رأى التطاونيون أن الفتك ببني النقسيس كان رحمة بهم. بخلاف الأمر في آل لوقش، فإنهم كانوا تطاونيين جملة واحدة: وهذه شنشنة أعرفها من اخزم. فإن بني أمية تشأموا في الشام، وتأندلسوا في الأندلس، فأصبح الشاميون يسيرون اينما رأوا ظل بني أمية، وكذلك فعلوا في الأندلس. وجاء الفقيه عمر، فطمح ببصره الى السماء، ولم ير أن الطيران مستحيل بلا جناح. ولم يكتف بنفسه في الطيران، بل نفخ الروح في الملأ من أهل تطاون وجعلهم يطمحون الى حيث يطمح. وحدثت الفقيه عمر نفسه بأنه ثالث العمرين، ولعله لم ير مانعا من أن يكون الثلاثة من باب واحد، فإن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وإن كان عدوياً، فإنه ولد له في بني أمية، فكان من نسله من جهة الأمهات عمر ابن العزيز الأموي. وعمر لوقش أموي، وقد خلق التاريخ صقر قريش مرة، فلعله يخلقه مرة أخرى. وفشل عمر لوقش في فكرته المتطرفة، لكن ولده الحاج محمد أخذ فكرة أبيه فحورها ونفذها وقبلها التاريخ راضيا. ونكاد نوقن أن الحاج محمد لوقش لم يفكر هذا التفكير، وما ذا يضرنا أو ينفعنا أنه فكر أو لم يفكر

فيه ما دام أمرا واقعا ولو بصورة مصغرة، وروح العظمة تتجلى في صغريات الأمور كما تظهر في كبرياتها.

ونفوذ روحي

إن الحاج محمداً لوقش عمل عملا صامتا فبنى مدرسة ومسجدا وترك للظروف أن تقول كلمتها. وكان ميدان التعليم بتطاون يتسع لعمله، وما فكر الفقيه عمر في أكثر من تطاون، وما كان يرغب في أكثر من أن يكون عاملها الدائم، لكنه نفخ في العبارة فانتفخت حتى انفجرت. وأخفق الفقيه عمر في امتلاك تطاون، لكن ولده نجح في امتلاكها وأكثر منها عن طريق النفوذ الروحي كما يسمونه. وقد خلف الفقيه عمر لولده الحاج محمد ثروة طائلة من التطاونيين وثقتهم، وعلى هذه الثروة قام صرح سيادة آل لوقش الروحية فأصبحت "مدرسة لوقش رمز كل متعلم وعالم بتطاون، فما من طالب أو عالم إلا وهو مرتبط بها نوعا من الارتباط. فإذا أردنا أن نذكر المنتمين إليها من الطلبة والعلماء كان علينا أن نأتي على ذكر كل منتمٍ للعلم من لدن تأسست "مدرسة لوقش إلى يومنا هذا الذي نحتفل فيه بمرور مائتي سنة على ولاية آخر عامل قدمه التطاونيون على أنفسهم بإرادتهم ومحض اختيارهم. ثم لم يقض في وظيفه إلا ست سنوات أو نحوها كان من جملة أعماله فيها أنه بنى هذه المدرسة، فأصبح ذكرها مقترنا بذكراه. وهو وإن لم يكن يسمى كأبيه باسم الفقيه، فإنه أنشأ رابطة العلم والتعليم بتطوان. وجاء هذا الوقت

الذي يحرص على البحث عن التراث الماضي، فنشر الحاج محمدا لوقش من الأفكار نشرا أبديا: فسوف يظل ذكره منشورا ما دام لواء العلم مرتفعا خفاقا في تطاون. وكلما تقدمت تطاون في المعرفة فإن فضل الرمزية للعلم والسبقية الى حمايته سوف تظل ملكا خالدا لمدرسة لوقش، وسوف يظل هذا الإسم محبوبا الى القلوب ما دامت المعرفة معترفة بالجميل لفاعليه.

فهرس



التهامي الوزاني

يضم هذا الكتاب نص دراسة مونوغرافية عن «مدرسة لوقش» كان التهامي الوزاني (1903-1972) قد وضعها بمناسبة مرور قرنين على بناء تلك المؤسسة العلمية بتطوان في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي. ويبدو أن الكاتب ألقى النص على شكل محاضرة، قبل أن يعمد إلى نشره على صفحات مجلة «الأنيس» الشهرية ضمن أعدادها الأربعة (80-81-82-83) الصادرة فيما بين شتنبر ودجنبر من سنة 1953.

يتعلق الأمر ببحث غير مسبوق يتناول جانبين: الجانب التاريخي الذي يشكل السياق العام، والسياسي بصفة خاصة، لتبلور إنشاء مدرسة لوقش، ثم الجانب المؤسساتي الذي يبحث في ملكية المدرسة، ووضعيتها، وحبوسها، وعلاقتها بالمسجد، وبالمجال الاجتماعي والروحي لمدينة تطوان. والملاحظ أن الكاتب عالج هذين الجانبين على نحو متتابع ومتداخل في آن، وحرص، كعادته، على إثرائهما باستطرادات وروايات شفوية وأساطير ومسموعات أضفت طابعاً مشوقاً على الدراسة في مجملها.

إبراهيم الخطيب